الفصل الأول

الأسرة أهم مؤسسة في الحياة

الزواج سنة كونية محكمة البنيان وطيدة الأركان

إن الناظر في كتاب الله يجد آية الزواج قد جاءت فتوسطت آيات دالة على وحدانية الله وعظمته وآلائه على عباده، يقول ﷻ في سورة الروم: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [الروم: 20].

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الروم: 21].

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾﴾ [الروم: 22].

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الروم: 23].

obeikandl.com

﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْىِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الروم: 24].

﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [الروم: 25].

فسابق آية الزواج ولاحقها إن نظرت إليه بعين البصيرة وبالعين الباصرة علمت ما للزواج من صلة قوية بالكون الذي خلقه الله. وكأن الزواج قد صار سنة كونية محكمة البنيان وطيدة الأركان امتنَّ به الله على عباده، كما امتنّ بنعمة خلق الإنسان، ونعمة خلق السمٰوات والأرض، ونعمة اختلاف الألوان والألسنة، ونعمة النوم، ونعمة النهار للكدح والعمل، ونعمة الماء الذي جعله قواماً للحياة ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ﴾ [الأنبياء: 30]، ونعمة قيام الساعة وبعث الناس للحساب والجزاء، وقد يقول سائل: وهل الموت والبعث بعد الموت نعمة يمتنَّ بها الله على عباده ويطلب منهم النظر في ذلك الأمر والاستعداد له؟! فأقول: نعم، هبْ أن الإنسان ظل طوال حياته مريضاً أو فقيراً أو مظلوماً وليس هناك حياة أخرى - ينتقل إليها بالموت - يعمل لها وينتظر ثمرة عمله واحتسابه وصبره على مرضه وفقره وهوانه على الناس، ماذا سيكون

حاله وما هي مشاعره؟ بالتأكيد إن حاله سيئة ومشاعره يائسة قانطة، ولو كان العيش في الدنيا هو كل شيء لكان الانتحار العاجل أولى بالناس أجمعين، وإن تلك الآيات قد لخصت حياة الإنسان في هذه الحياة الدنيا من مبدئه إلى منتهاه من الميلاد إلى البعث بعد الموت.

إن الزواج هو سبب التكاثر في الإنسان وفي غيره، والإنسان في هذه الحياة يقوم بعمارة الأرض وبوظيفة الخلافة وحمل الأمانة. وإن الحياة الزوجية هي مركز تجمع الحياة الدنيوية وجنة سعادتها وقلعتها الحصينة، وإن بيت كل إنسان هو عالمه الصغير ودنياه الخاصة. ولا سعادة في حياة الأسرة إلا بالسكن والمودة والرحمة التي تشيع من جنبات الحياة الزوجية مع صفات أخرى وخلال كريمة، ولا وجود لتلك الخصال الكريمة التي تربط بين أفراد الأسرة الواحدة بعضهم ببعض إلا إذا تيقن الجميع بأن هذه العلاقات القوية الطيبة التي بين الأولاد والآباء وبين الإخوة وبين الزوجين لها أثر وامتداد إلى ما بعد الحياة الدنيا.

فهي علاقات عميقة الجذور بالغة الأهمية عظيمة الأثر بعيدة الآمال تعلو على الفناء. والدليل على ذلك:

إنه إذا ما انتهت هذه الحياة الدنيا وتركها أهلها

فرادى وجماعات، التأم شملهم مرة أخرى في الدار الآخرة على نحو ما كانوا عليه في الحياة الدنيا، من إيمان ووفاء بعهد الله وعدم نقض لميثاقه، وصلة لما أمر الله بأن يوصل وخشية لله وخوف من حسابه، وصبر على ما يجب الصبر عليه من الطاعات والمكاره، وصبر عن المعاصي، وإقام الصلاة، والإنفاق في السر والعلن، والدفع بالحسنة. يقول ﷻ في ذلك: ﴿ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ ﴿٢٠﴾ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢١﴾ وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٢﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾﴾ [الرعد: 20-23].

فها هي تلك الروابط والعلاقات ممتدة الآماد عظيمة الأثر تعلو على الفناء، وفي سبيل جمع الشمل في الآخرة يلتحق الأبناء المقصرين بالآباء المجدين يقول تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ ۚ ﴿٢١﴾﴾ [الطور: 21].

هذا شأن الأسرة المؤمنة بربها يبقى عقدها في النعيم المقيم، والأسر الأخرى يبقى عقدها كذلك فيما استحقت

من العذاب يقول سبحانه: ﴿ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ﴾ [الصافات: 22-23].

إنه حقاً لعجب أن تظل تلك الروابط والعلاقات التي بين أفراد الأسرة بعضهم ببعض موصولة قائمة إلى ما بعد الحياة الدنيا.

ولكن العجب ينقطع إذا فقهنا طبيعة الحياة الزوجية، وقمنا بها على الوجه الذي حدده الله ورسمه لنا في آياته الكريمة وسنة نبيه ﷺ.

ألم يقل سبحانه وتعالى في سورة البقرة عند البدء في ذكر آيات أحكام الأسرة: ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ۚ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ۗ وَلَا تُنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا۟ ۚ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِۦ ۖ وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٢١﴾﴾ [البقرة: 221].

فالشاهد هنا قوله تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ - أي المشركين - ﴿يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلْجَنَّةِ﴾.

ثم لنقرأ سوياً ما جاء في آيات أحكام الأسرة التي

ذكرنا أولها آنفاً، يقول سبحانه وتعالى: ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ ۖ وَقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٢٣﴾﴾ [البقرة: 223].

فالشاهد هنا قوله تعالى: ﴿وَقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٢٣﴾﴾ [البقرة: 223].

فالأمر هنا «وقدموا لأنفسكم» يفهم منه أن الزوجين مطلوب منهما أن يقدما ما ينفعهما في مستقبل حياتهما سواء حياتهما الزوجية والأسرية في الدنيا، أو حياتهما الأخروية، وهو ما يفهم منه ضرورة حسن اختيار الزوج لزوجته، وحسن اختيار الزوجة لزوجها كما مر في قوله: ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ۚ﴾. ثم إن هما أحسنا الاختيار فليحرصا على النسل، ويؤكد هذا قوله تعالى: ﴿فَٱلْـَٰٔنَ بَٰشِرُوهُنَّ وَٱبْتَغُوا۟ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۚ﴾ [البقرة: 187]. فيستفاد من ذلك الدعوة إلى طلب الولد، وأن السبيل إلى ذلك هو الجماع الذي صار حلالاً بموجب عقد النكاح.

والحرص على النسل يستوجب الحرص على تعهده بالتربية الصالحة حتى يشب صالحاً وينتفع الآباء بعد موتهم بدعاء أولادهم الصالحين، وليحرص الزوجان كذلك على حسن معاشرة بعضهما البعض حتى يجدا ثمرة ما قدما من خير وعمل صالح في حياتهم الأسرية، تتمثل

في سكن واطمئنان ومودة ورحمة وحياة زوجية طيبة هانئة، وكذلك في المجتمع وفي الآخرة.

فمن أحسن العشرة فقد قدَّم لنفسه وعمل في حاضره ما يكون ذخراً وعتاداً في مستقبله، سواء ما يخص حياته الأسرية والعامة، وما يخص مستقبله في الآخرة.

وعلى هذا يكون لقوله تعالى: ﴿وَقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُمْ﴾. معنى عام يشمل كل خير وعمل صالح يقوم به الإنسان، ومعنى خاص هو ما يتعلق بالعشرة الزوجية ورعاية الولد.

وأعود لأمعن النظر مع القارىء الكريم في آيات سورة الرعد ـ السابق ذكرها ـ فنجد ذكر إقام الصلاة مع آيات ذكرت دخول الجنة مع الآباء والأزواج والذرية (أفراد الأسرة)، وكذلك ذكر الوفاء بعهد الله وعدم نقض ميثاق الله وصلة ما أوجب الله صلته والإنفاق، كلها كلمات ومعاني لها ارتباط وثيق بأحكام الأسرة، فالنساء أخذهم الأزواج بأمانة الله واستحلوا فروجهن بكلمة الله، والنساء أخذن على الأزواج ميثاقاً غليظاً، والنساء لهن شروط قد تشترطنها على الأزواج عند العقد يلزم الوفاء بها، والرجال الأزواج ينفقون على الزوجات والأبناء: ﴿وَبِمَآ أَنفَقُوا۟ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ﴾ [النساء: 34]. وفي الزواج صلة للأرحام.

وذكر إقامة الصلاة في سورة الرعد له ارتباط بآية: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَوٰةِ ﴿١٣٢﴾﴾ [طه: 132].

وإنا لواجدون آيات أمرت بالمحافظة على الصلاة في أوقات الأمن والسلم والخوف بين آيات أحكام الأسرة في سورة البقرة، كأن الله سبحانه وتعالى يقول لنا: لئن كانت الصلاة لا تترك بحال سواء في السلم أو في أوقات الحرب، فإن الاهتمام بالحقوق التي افترضها الله على أفراد الأسرة تجاه بعضهم بعضاً لا تترك ولا تهمل، سواء كانت الحال في الحياة الزوجية والأسرية حال أمن وسعادة واطمئنان ودوام العشرة، أم كانت حال اضطراب وقلق وشقاء وانقطاع للعشرة.

وفي الصلاة تهذيب وتزكية للنفس واستكمال لفضائلها ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾﴾ [الأعلى: 14-15] والمحافظ على الصلاة حري به أن يحافظ على الميثاق الغليظ الذي أخذته زوجته عليه، وفي الصلاة استشعار لعظمة الله وهذا الاستشعار يمنع المقيم للصلاة من سوء عشرة أهله وظلمهم وتعد حدود الله معهم ﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [البقرة: 229] لذلك ناسب ورود الأمر بالمحافظة على الصلاة بين آيات أحكام الأسرة في سورة البقرة والله تعالى أعلم.

وإن ذكر الصلاة في مقام ذكر أحكام الأسرة لا يستغرب ولا يتعجب منه إذا علمنا أن الرسول ﷺ كان آخر ما قاله قبل موته عليه الصلاة والسلام الأمر بالصلاة والوصية بالنساء.

من هذا نعلم مدى أهمية الأسرة وعظيم مكانتها في تعاليم الدين، وأنها علاقات بالغة الأهمية عميقة الجذور عظيمة الأثر بعيدة الآماد تعلو على الفناء كما أسلفنا القول في الصفحات السابقة.

ومن الأدلة على أهمية الأسرة وعظم قدر العلاقات والروابط التي تربط بين أفرادها أنها ما وردت آية تخص حياة الأسرة من مبدئها إلى منتهاها إلا صاحبَها كلمة الخوف؛ ذلك لأن أمر الأسرة عظيم وقدرها جليل وتحظى بأهمية بالغة، ولقد اعتنى بها القرآن أيّ اعتناء، وفصّل في أحكامها ما لم يفصله في الصلاة أو الزكاة أو الحج.

فعند إرادة التزوج نراه يقول: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا۟ فِى ٱلْيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ فَوَٰحِدَةً﴾ [النساء: 3] فها هي كلمة الخوف تصاحب بداية الحياة الزوجية وأثناء العشرة الزوجية ترد كلمات الخوف ﴿وَٱلَّٰتِى تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ﴾ [النساء: 34].

﴿وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا﴾ [النساء: 128].

﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُوا۟ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ﴾ [النساء: 35].

وكذلك عند انقطاع العشرة بالطلاق أو الموت:

﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُوا۟ مِمَّآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْـًٔا إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ ﴿٢٢٩﴾﴾ [البقرة: 229].

﴿وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا۟ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَـٰفًا خَافُوا۟ عَلَيْهِمْ﴾ [النساء: 9].

﴿فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا﴾ [البقرة: 182].

فهذه الآيات الكريمات تدل على أن أمور الحياة الزوجية والأسرية أمور بالغة الأهمية عميقة الجذور ممتدة الأثر عظيمة القدر خطيرة لا يمكن التهاون فيها والتقليل من شأنها. فبمجرد الإحساس بالخوف من وقوع خطر أو سوء في العلاقة يجب المبادرة إلى تصحيح الوضع وعلاجه، وليس الانتظار حتى يقع المحظور ويستفحل أمره والله أعلم. ومن الأدلة أيضاً على أهمية الزواج وأهمية آثاره ونتائجه نجد المولى ﷻ يسمي ما شرعه من

أحكام تخص الحياة الزوجية والأسرية حدود الله. ففي آيات سورة البقرة يقول ﷻ: ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ فَإِمۡسَاكُۢ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ تَسۡرِيحُۢ بِإِحۡسَٰنٖۗ وَلَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَأۡخُذُواْ مِمَّآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ شَيۡـٔٗا إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِۖ فَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَا فِيمَا ٱفۡتَدَتۡ بِهِۦۗ تِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعۡتَدُوهَاۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [البقرة: 229].

﴿فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعۡدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوۡجًا غَيۡرَهُۥۗ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَآ أَن يَتَرَاجَعَآ إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِۗ وَتِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: 230].

وسماها كذلك آياته ﴿وَلَا تَنكِحُواْ ٱلۡمُشۡرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤۡمِنَّۚ وَلَأَمَةٞ مُّؤۡمِنَةٌ خَيۡرٞ مِّن مُّشۡرِكَةٖ وَلَوۡ أَعۡجَبَتۡكُمۡۗ وَلَا تُنكِحُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤۡمِنُواْۚ وَلَعَبۡدٞ مُّؤۡمِنٌ خَيۡرٞ مِّن مُّشۡرِكٖ وَلَوۡ أَعۡجَبَكُمۡۗ أُوْلَٰٓئِكَ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلنَّارِۖ وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱلۡجَنَّةِ وَٱلۡمَغۡفِرَةِ بِإِذۡنِهِۦۖ وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [البقرة: 221].

﴿وَإِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغۡنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمۡسِكُوهُنَّ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعۡرُوفٖۚ وَلَا تُمۡسِكُوهُنَّ ضِرَارٗا لِّتَعۡتَدُواْۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَقَدۡ ظَلَمَ نَفۡسَهُۥۚ وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوٗاۚ وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَٱلۡحِكۡمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾ [البقرة: 231].

ومن الأدلة أن الله سمى الزواج نعمة كما في الآية السابقة.

ومن الأدلة ختم الآيات بقوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٣١﴾﴾ [البقرة: 231].

أي كأنه يقول: اجعلوا بينكم وبين عذاب الله وسخطه وانتقامه وقاية فلا ترتكبوا في علاقاتكم الزوجية والأسرية ما يوجب عذاب الله وسخطه عليكم.

وآيات مثل: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَٰجَهُنَّ إِذَا تَرَٰضَوْاْ بَيْنَهُم بِٱلْمَعْرُوفِ ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: 232].

﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةٌۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦ وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّآ ءَاتَيْتُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٣﴾﴾ [البقرة: 233].

﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ۖ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ ۗ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [البقرة: 234].

﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِۦ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِي أَنفُسِكُمْ ۚ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَن تَقُولُوا قَوْلًا مَّعْرُوفًا ۚ وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُۥ ۚ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ ۚ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ [البقرة: 235].

تدل على أهمية الزواج وآثاره وأنه أمر خطير عظيم، فليحذر أفراد الأسرة ومن يحيط بهم من ارتكاب محظور يستوجب غضب الله عليهم وسخطه وعذابه، فهو يسمع ويرى ويعلم ما يحصل في الأسرة.

وأحكامه سبحانه وتعالى الخاصة بشؤون الأسرة تصدر عن حكمة بالغة، وهي مشتملة على الطهر والزكاة وما شرعه فيها من أحكام إنما هي لصلاح حال الأسرة ولصلاح حال المجتمع، وإنما يستجيب لأحكام الله في شؤون الأسرة من كان مؤمناً بالله واليوم الآخر.

أيها القراء الكرام قولوا لي بعد أن قرأتم ما كتبته

لكم في هذه الورقات، ما حكم الذي يخرج عن شرع الله في أحكام الأسرة ويتعدّ حدود الله؟

ولو شئتم لقلتم: ﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [البقرة: 229].

ولقلتم أيضاً: ﴿ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ [البقرة: 232].

وليس بعد كلام الله كلامٌ لأحد.

صدقتم وأحسنتم ولكن ألا تدعون معي ليرد الله الشاردين عن منهجه وشرعه رداً جميلاً حتى تهنأ نفوسنا وتقر أعيننا بأزواجنا وذرياتنا وتسعد بيوتنا وتصلح حياتنا داخل الأسرة وداخل المجتمع، ونحيا حياة طيبة، وننعم بالنعيم المقيم يوم القيامة فندخل الجنة نحن وآباؤنا وأزواجنا وذرياتنا بفضل الله ورحمته.

وأخيراً أختم كلامي عن أهمية الأسرة في هذا الفصل فأقول: انظروا قرائي الكرام الأحبة إلى ما ختم الله سبحانه وتعالى الآية الأولى من الآيات التي تحدثت عن أحكام الأسرة في سورة البقرة فقال: ﴿وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [البقرة: 221].

obeikandl.com

وإلى ما ختم الله سبحانه وتعالى به الآية الأخيرة من آيات أحكام الأسرة من السورة نفسها فقال ﷻ: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: 242].

وأراني منساقاً لأسرد لكم ما قاله شيخنا العلامة الإمام محمد أبو زهرة في ذلك. يقول عليه سحائب الرحمة وشآبيب المغفرة: بهذه الجملة الكريمة السامية ختم الله سبحانه وتعالى الآيات المتعلقة بأحكام الأسرة وقد ابتدأ بيانها بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ۚ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ۗ وَلَا تُنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا۟ ۚ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِۦ ۖ وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [البقرة: 221].

وإن ذلك الختام الكريم فيه تصوير لبيان الله سبحانه وتعالى لأحكام الأسرة وشدة عنايته بأمرها، وتوضيح الأسس الصالحة التي تقوم عليها والعدالة والمودة والرحمة التي تربط بين آحادها، وكيف فصل سبحانه القول فيها تفصيلاً لم يفصله في غيرها من شؤون الدين، فلم يبين الصلاة والزكاة والحج كما بيّن في كتابه الكريم أحكام الأسرة والروابط التي تربط بين آحادها؛ لأن الأسرة قوام المجتمع الإسلامي الفاضل، فإذا تزلزلت

اضطرب ميزان الاجتماع وتهدمت أركانه[1].

رحم الله الشيخ رحمة واسعة وأدخله فسيح جناته وجزاه الله عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء ونفعنا بعلومه. هذا وندعو لجميع العلماء العاملين المخلصين مثل ما دعونا له وإن كنت أرى نفسي لست أهلاً لأن يلتمس مني الدعاء فإنني أسير الجهل والتقصير ولكن وفاءً لبعض ما أنا مدين به للعلماء الذين انتفعت بعلومهم وأفدت منها خيراً كثيراً أدعو لهم ليتولى الله حسن مكافأتهم آمين.

وإلى الفصل القادم أكون بمعيتكم إخوتي القراء الكرام، إن شاء الله.

(1) «زهرة التفاسير»، للعلامة محمد أبو زهرة رحمه الله (ج11 ص855).

obeikandl.com